غير حسن المعتوه ، الذي لازمه كما يلازم الانسان ظله ، بعد ان تفرق عنه معظم رجاله الذين هاموا على وجوههم في الجبال ٠

ويروي حسن المعتوه ، انه لم يسمع الشيخ لافي يتأوه ولو لمرة واحدة ، في كل تلك الفترة التي كانت الجدري تتفشى في جسده ، ولكنه كان دائم البكاء بصمت ، والدمع لا ينفك يسح على وجنتيه ، وحين كان يسأله عن سر بكائه ، كان يرد عليه بصوت ضعيف كالطالع من زوايا المغارة « اطلع يا حسن وشوف كان بعد في رجال في الجبال ، وان كانت نسوان البارد بعدها بتحبل وتلد » ٠ فيبكي حسن ويقول له « ما تعتل هم يا لافي ، الرجال ماليه الجبال ، والنسوان بهالقحط عدولها توام » ، فتطل البسمة من خلف التآليل على شفتيه ، ثم يفتح عينيه المتورمتين ، فيتدفق ماء التآليل المختلط بالدمع على وجنتيه ، فيغمضهما ثانية ٠

اما ما كان يحير حسن المعتوه ، ويملأ قلبه بالخوف في تلك الليالي التي كان يسهر فيها على الشيخ لافي خارج المغارة ، هو ذلك الشبح الذي كان يشبه الصبية الفارعة الطول ، والذي كان يراه ينزل قبل طلوع الفجر من قمة الجبل متجها نحوه ، فيشمر حسن عن ساقيه وينطلق في الاتجاه المعاكس ثم يجلس على القمة المقابلة ، الى ان يراه يصعد القمة عائدا من حيث اتى في اتجاه البارد ، ولكنه لم يكن يجرؤ في يوم من الايام على سؤال الشيخ لافي عما كان يراه ، كي لا يتهمه بالخوف والخبل ، وحين غفا حسن على باب المغارة ذات ليلة بعد ان هده السهر ، صحا على حفيف ثوب يمر كالريح فوق وجهه ، فاغمض عينيه وهو يتجمد في مكانه ، ثم نهض واطلق ساقيه للريح الى القمة المواجهة ٠

ظل حسن يجلس فوق القمة في انتظار عودة ذلك الشيخ الذي دخل المغارة دون ان يغمض له جفن ، طيلة اليوم والليلة التاليين ، الا انه لم يعد ، فنزل حسن ، وراح يتقدم من المغارة ورجلاه تكادان تصطكان من الخوف ، ثم وقف بباب المغارة وراح ينادي بالشيخ لافي بصوت راجف وهو يحس بالذنب لغايبه عنه ، وحين لم يسمع اي جواب ، عض على شفته ، ثم لعق لسانه واندفع داخلا ، الا انه توقف فجأة وهو يكاديصرخ ، لولا ان رأى الشيخ لافي يرفع اليه يده يطمئنه وهو ينتحب ، بينما كانت يده الاخرى تلتف حول عنق خديجة بنت حليمة البرمكية ، التي كانت قد اسلمت الروح على ذراعه ٠ والتي لولا ضفائرها الطويلة المسبلة على جانبيها لما كان حسن يعرفها ، بعد ان كست التآليل وجهها وعينيها ٠

□

كانت « برزانات » الانسحاب التي يعرفها الشيخ لافي جيدا منذ ان كان في اليمن ، تردد في الجبال والمرج ، واصوات المدفعية الاتية من البعيد ، ترجع